استراتيجيّات الاعتبار في السيرة الذاتيّة

«كتاب الاعتبار» لابن منقذ أنموذجا

د/ يسرى التمراوي
جامعة سوسة، تونس
Tamraoui.yossra@yahoo.com

الملخّص :

يهدف هذا المقال إلى دراسة مقصد الاعتبار في أدب السيرة الذاتيّة في الأدب العربيّ القديم من خلال كتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ. وقد أقمناه على محورَيْن كبيرَيْن:

ينصرف المحور الأوّل إلى النظر في مقصد الاعتبار من وجهة نظر الكاتب من جهة كونه المعنيّ المباشر بهذا المقصد. وسنتتبّع مختلف الاستراتيجيّات الناهضة به انطلاقا من المادّة الحكائيّة التي اختارها الكاتب، واختياراته الفنيّة في بنائها.

ويتّصل المحور الثاني بمقصد الاعتبار الموجّه إلى القارئ من جهة كونه معنيّا من الدرجة الثانية بهذا المقصد. وسنبحث في الاستراتيجيّات التي أجراها ابن منقذ لحمل القارئ على الاعتبار ممّا ورد في الكتاب. وسنستمدّ من أبرز مقولات النقد الأدبيّ الحديث بعض الأدوات المنهجيّة لتحقيق أهدافنا.

الكلمات المفاتيح :

الاعتبار، استراتيجيّة، الاستحضار، التبصّر، التأثّر، المحاكاة، الاقتناع

Contemplation strategies in Biography

Ibn munqidh book of Contemplation as an example

Dr, Tamraoui Yossra
University: Sousse, Tunisia
Tamraoui.yossra@yahoo.com

Abstract :

literary biography in ancient literature through Usama ibn munqidh's book of Contemplation. We devided it into two major sections:

The first section deals with the purpose of contemplation from the writer's point of view as he is directly concerned. We are going to follow its various strategies starting from the writer's narratology choices and his literary styles

The second section deals with the purpose of Contemplation directed to the reader as he is concerned with it on second place. We are going to explore the strategies carried out by ibn munqidh to lead the reader to contemplation from the book. We are going to use some tools to achieve our goals from the major works of modern literary criticism.

Key words :

Contemplation / strategy / conjuring / foresight / conviction / affectedness / Simulation

المقدّمة

تندرج السيرة الذاتيّة في «كتاب الاعتبار»[1] لابن منقذ ضمن ما يُصطلح عليه بـ«أدب الذات» (Littérature intime). وهي تتقاطع أجناسيّا[2] مع أنواع أخرى مجاورة لها. منها ما ينزع إلى الوقع المرجعيّ كالمذكّرات والرسائل[3]، ومنها ما ينزع إلى التخييل كتخييل الذات[4] (Auto-fiction)[5].

ولئن دأب الغربيّون على اعتبار السيرة الذاتيّة شكلا من أشكال التعبير الخاصّ بالثقافة الغربيّة[6]، وجعلوا «اعترافات» روسو بداية التأسيس لهذا الجنس الأدبيّ الجديد، فإنّ أدبنا العربيّ القديم لا يخلو من هذا اللون من الكتابة[7]. ولكنّه يظلّ في حاجة ملحّة إلى البحث والدراسة، من أجل الوقوف على خصائصها الفنيّة وأبعادها الدلاليّة، لتتيسّر بعد ذلك عمليّة تجنيسها.

وإذا كانت الذات هي قطب المدار في السيرة الذاتيّة، فإنّ مقاصدها تجري إلى الاعتبار. فالسيرة الذاتيّة في ظاهرها قصّ وإخبار في باطنها نظر واعتبار. فكاتب السيرة الذاتيّة ينقل تجارب عاشها في ما مضى من حياته. والقارئ لا يعدم من تلك التجارب عظة يستملحها وعبرة يفيدها.

وليس أمر الاعتبار موكولا إلى القارئ، وإنّما هو صناعة يأخذ كاتب السيرة الذاتيّة بأسبابها. فينوّع استراتيجيّاته الخطابيّة ويغيّر تقنيّاته الفنيّة لحمل القارئ على الإفادة والاعتبار. فلم الاعتبار؟ وفيم تتجلّى الاستراتيجيّات الناهضة به؟ وما التقنيّات المحقّقة له؟

وسنعتمد في الإجابة عن هذه الأسئلة على «كتاب الاعتبار» لأسامة بن منقذ. ولاختيارنا هذا سببان: يتّصل أوّلهما بكون «كتاب الاعتبار» نوعا سرديّا حادثا في فنّ القصّ في الأدب العربيّ القديم، وله من السمات والخصائص ما يخوّل إدراجه ضمن السيرة الذاتيّة. ويتمثّل السبب الثاني في كون هذا الكتاب قائم في ذاته على الاعتبار. وكلّ ما ورد فيه انتشار لعنوانه «الاعتبار».

وقد لا يستقيم أمر النظر في استراتيجيّات الاعتبار الواردة في كتاب أسامة بن منقذ «كتاب الاعتبار» ما لم ننظر في مشروعيّة انتمائه إلى جنس السيرة الذاتيّة لما في تحديد الجنس الأدبيّ من ضوابط توجّه عمليّة تفكيك الآثار الأدبيّة وتأويلها. فما منزلة «كتاب الاعتبار» من السيرة الذاتيّة؟

I «كتاب الاعتبار» ومسألة التجنيس

شهد التنظير لكتابة الذات خصوصا السيرة الذاتيّة تطوّرا مستمرّا[8]. ويعدّ فيليب لوجون (Philippe Lejeune) أبرز الباحثين في مجال السيرة الذاتيّة.

(1) أسامة بن منقذ، كتاب الاعتبار، حرره فيليب حتي، الدار المتّحدة للنشر، بيروت، 1981.

(2) ضبط فيليب لوجون الأجناس الأدبيّة في أدب الذات. وهي السيرة الذاتيّة والمذكّرات والسيرة والرواية الشخصيّة والقصيدة السيرذاتيّة والصورة الشخصيّة.
Philippe Lejeune. Le pacte autobiographique. Coll. Poétique. Seuil. Paris. 1975. p. 14.

(3) يُنظر للتوسّع حول المذكّرات والرسائل المقالات الواردة في:
L›autobiographique hors l›autobiographie. Elseneur No 22. Presses Universitaires de Can. 2008.

(4) عرّف فانسان كولونا التخييل الذاتيّ قائلا: التخييل الذاتيّ عمل أدبيّ يختلق بواسطته مؤلّف مّا لنفسه شخصيّة ووجودا ويظلّ محافظا في الوقت نفسه على هويّته الحقيقيّة (اسمه الواقعيّ).
مجموعة مؤلّفين، معجم السرديّات، إشراف محمّد القاضي، نشر مشترك، ط 1، 2010، ص 7.

(5) يعتبر عبد الله شطاح التخييل الذاتيّ سيرة ذاتيّة متمرّدة تجاوزت حدود نوعها من دون أن تتعاقد مع القارئ على أنّها كذلك أو على أنّها جنس ما محدّد يتمّ تعيينه بدقّة.
عبد الله شطاح، تسريد الذات بين الرواية والسيرة الروائيّة.. المرجع والمتخيّل، عالم الفكر، العدد 171، مارس 2017، ص 9.

(6) Georges May. L’autobiographie. PUF. 2ème édition. Paris. 1984. p. 18.

(7) نذكر بالخصوص إلى جانب «كتاب الاعتبار» لأسامة بن منقذ، رحلة ابن خلدون غربا وشرقا والمنقذ من الضلال للغزالي.

(8) عرضت جليلة الطريطر أهمّ النظريّات السيرذاتيّة.
جليلة الطريطر، مقوّمات السيرة الذاتيّة في الأدب العربيّ الحديث (بحث في المرجعيّات)، مركز النشر الجامعيّ ومؤسّسة سعيدان للنشر، تونس، 2004، ص ص 119-138.

وقد عرّفها قائلا: «قصّة ارتجاعيّة نثريّة، يروي فيها شخص حقيقيّ وجوده الخاصّ، مركّزا حديثه على حياته الفرديّة وخصوصا تاريخ شخصيّته»[1].

لقد وضع فيليب لوجون من خلال هذا التعريف شروطا أربعة للسيرة الذاتيّة:

- الشرط الأوّل: يحدّد هذا الشرط شكل الكلام. فيجب أن تكون السيرة الذاتية قصّة نثريّة.
- الشرط الثاني: يتعلّق الشرط الثاني بموضوع السيرة الذاتيّة. وهو حياة الفرد وتاريخ شخصيّته.
- الشرط الثالث: يشترط فيليب لوجون التطابق بين الكاتب والراوي.
- الشرط الرابع: يقضي هذا الشرط بوجوب التطابق بين الراوي والشخصيّة الرئيسة في السيرة، أو ما يُعرف بالميثاق السيرذاتيّ. ويقضي كذلك بوجوب التزام الراوي بالمنظور الارتجاعيّ.

ولا يمكن أن ندرج أيّ أثر أدبيّ ضمن جنس السيرة الذاتيّة ما لم تتوفّر فيه هذه الشروط، خصوصا التطابق بين الكاتب والراوي من جهة، والتطابق بين الراوي والشخصيّة من جهة أخرى[2].

تبدو هذه الشروط على درجة كبرى من الصرامة جعلتها عرضة للنقد باستمرار[3]. ومتى نظرنا من خلالها إلى كتاب الاعتبار وجدناه من جهة شكل الكلام قصّة نثريّة التزم فيها صاحبها بالمنظور الارتجاعيّ. وتعلّق مضمونها بحياة أسامة بن منقذ. غير أنّ المؤلّف لم ينصرف كلّيّا إلى تاريخه الشخصيّ، وإنّما انصرف إلى تاريخ مجتمعه، فنقل أحيانا تجارب كان مجرّد شاهد عليها. ولئن حصل التطابق التامّ بين الكاتب والراوي فإنّ التطابق بين الراوي والشخصيّة الرئيسة لم يكن تامّا. فلم يكن الراوي شخصيّة رئيسة في الأخبار التي كان مجرّد شاهد على أحداثها.

ويمكن استنادا إلى هذه الشروط أن ندرج كتاب الاعتبار ضمن جنس السيرة الذاتيّة. فقد استجاب للشروط التي وضعها فيليب لوجون بما في ذلك الشرط الثاني. فنحن نقدّر أنّ أسامة بن منقذ قد نقل حياته وتاريخه الشخصيّ من خلال تاريخ مجتمعه لسببيْن: يتّصل أوّلهما بكون أسامة بن منقذ آخذ بأسباب ثقافة تخصّ الذات الإلهيّة بالوحدانيّة والتفرّد. وتقدّم مفهوم الجماعة[4] على مفهوم الفردانيّة[5]. ويتمثّل السبب الثاني في أنّ أسامة بن منقذ قد جعل من تاريخ الجماعة التي عاش معها مرقاة لتأديب ذاته وحملها على الاعتبار[6]. ومن هذا المستوى بالذات اكتسب مفهوم

(1) Philippe Lejeune. Le pacte autobiographique. Coll. Poétique. Seuil. Paris. 1975. p. 14.

(2) Philippe Lejeune. Le pacte autobiographique. op. cit. p. 15.

(3) اعترض جور ماي على شروط فيليب لوجون قائلا: «لعلّه يحسن بنا أن نستعيض عن مفهوم التعريف الذي فيه شيء من التصلّب المفرط والتجمّد المفرط أو قل من الجزم المفرط بمفهوم أكثر مرونة، هو مفهوم النزعة وحتى الإغراء. فما نخسره من دقّة في هذا الجانب نغنمه صحّة في الجانب الآخر».
جورج ماي، السيرة الذاتيّة، ترجمة عبد الله صولة ومحمّد القاضي، بيت الحكمة، 1992، ص 220.
وكتب سيرج دوبروفسكي (Serge Doubrovsky) روايته «Fils» ردّا على بعض شروط فيليب لوجون. وأثبت أنّه يمكن أن يتطابق البطل والروائيّ في الاسم، ومع ذلك يظلّ النصّ تخييليّا.
مجموعة مؤلّفين، معجم السرديّات، ص ص 78-79.

(4) يقول محمّد القاضي: والراجح أنّ خلوّ الأدب العربيّ من السيرة الذاتيّة كخلوّ نظيره الغربيّ عائد إلى ما آمن به الناس في العصور القديمة من أنّ الحديث عن النفس معيب، وأنّ الإنسان لا قيمة له بما هو فرد مخصوص وإنّما قيمته فيما يتلبّسه من قيم الجماعة.
محمّد القاضي، الظاهر والباطن في كتاب «الأيّام» بحث في التبئير، ضمن مائويّة طه حسين وقائع ندوة بيت الحكمة بقرطاج 27 و28 جانفي 1990، المجمع التونسيّ للعلوم والآداب والفنون بيت الحكمة، تونس، 1993، ص 208.

(5) يرى حمّادي صمّود أنّ إقصاء الذات أو قلّة حضورها في السيرة الذاتيّة الكلاسيكيّة سببه أنّ الناثر العربيّ القديم لا يقول إلاّ ما يريد الآخر منه أن يقول. فهو صوت غيره مقطوع عن نفسه شاهد على القيم السائدة مبلّغ إيّاها للناس.
Hammadi Sammoud. Prose arabe". in Encyclopédia Universalis. T 2. 1985. p.p. 435- 436.

(6) تقول جليلة الطريطر: «إنّ الأحداث المسرودة غير مقصودة لذاتها بل محّضت للدلالة على التعطّش إلى إدراك المعنى الخفيّ أو الباطن المتحكّم فيها فآل الأمر إلى انقلاب الموازين إذ رجحت كفّة الذاتيّ على الموضوعيّ».
جليلة الطريطر، الاعتبار لأسامة بن منقذ نموذجا في الكتابة السيرذاتيّة العربيّة القديمة، حوليّات الجامعة التونسيّة، ع 37، 1995، ص 282.

الاعتبار قيمة كبرى. فمن المعتبِر؟ وما المعتبَر به؟ وما الاستراتيجيّات الناهضة بمقصد الاعتبار؟

II الاعتبار المباشر

وردت المادّة الحكائيّة في كتاب الاعتبار في شكل أخبار. وقد اتّخذت بنية الخبر ثلاث صور من جهة مكوّناته: تتمثّل الأولى في البنية المجرّدة القائمة على السرد. فقد تواترت الأخبار التي اقتصر فيها الكاتب على نقل الوقائع[1]، وتتّصل البنية الثانية بتصدير الخبر بتمهيد ضمّنه موقفا أو حكما، وأمّا البنية الثانية فتقوم على الجمع بين السرد والتعليق[2]؛ فقد عمد الكاتب إلى ختم أخبار عدّة بتعليق أفاده من الوقائع التي نقلها. وأحيانا ترد هذه المكوّنات الثلاثة في الخبر الواحد[3]. وقد مثّل كلّ مكوّن من هذه المكوّنات ضربا من الاستراتيجيّات التي وظّفها الكاتب في تحقيق مقصد الاعتبار[4]. فما الاستراتيجيّات التي نهضت بالاعتبار المباشر؟

1/ استراتيجيّة الإحضار

نقل الكاتب في القسم الرئيس من كلّ خبر الوقائع والتجارب التي عاشها أو كان شاهدا عليها أو تحمّلها عن بعض الرواة. وقد حرص على تنظيمها في مستويين تنظيما غرضيّا: يتمثّل أوّلهما في تنظيمها داخل أبواب ثلاثة، لكلّ باب غرضه، فقد أفرد الباب الأوّل للحروب والأسفار، وسجّل فيه أحداث الحروب، وصوّر مشاهد المعارك، وتنقّلاته بين البلدان. وما ميّز هذا القسم الأوّل أنّ الأحداث المستحضرة وردت حسب ذاكرة أسامة؛ فقد افتتح كتابه بالحديث عن معركة «قنّسرين» ومحاصرة الرّوم لشيزر، فقال: «ثمّ إنّ ملك الرّوم عاد فخرج إلى البلاد في سنة اثنين وثلاثين وخمسمائة واتّفق هو والإفرنج – خذلهم الله– وأجمعوا على قصد شيزر ومنازلتها» (ص 2)[5]. فذاكرته بدأت تشتغل من مرحلة متقدّمة من عمره، فروى تنقّلاته من «شيزر» نحو دمشق التي أقام فيها ثماني سنين. وجاء حديث أسامة مقتضبا، فاقتصر على ذكر مدّة إقامته وما تميّزت به تلك الفترة التي شاهد فيها عدّة حروب، وحظي بالتّقدير والرّفعة دون ذكر تفاصيل في ذلك، فقال: «وشهدت فيها عدّة حروب وأجزل لي صاحبها رحمه الله العطيّة والإقطاع وميّزني بالتقريب والإكرام» (ص 3).

ثمّ رحل مرّة أخرى إلى مصر، وقدّر له أن يشهد الحروب في عهد الدّولة الفاطميّة، وخاض فيها العديد من المعارك والغارات آنذاك، ليعود إلى دمشق سنة تسع وأربعين وخمسمائة من مهمّة رسميّة. وهناك شهد أسامة بن منقذ حروب المسلمين ضدّ الإفرنج. وقاتل في العديد من المعارك.

وخصّص الباب الثاني لنقل بعض النكت والنوادر التي حضرته وهو يستحضر أحداث حياته، فذكر ما سمعه من نوادر من رواة ثقة. وقد قسّمه صاحبه قسمين اثنين: افتتح القسم الأوّل بالحديث عن أخبار الصّالحين، وأورد في القسم الثّاني بعض الأخبار حول أساليب التداوي.

وتحدّث في الباب الثالث عن الصّيد وأنواع الحيوانات، فذكر رحلات الصّيد التي حضرها في شيزر قائلا: «وأنا ذاكر فصلا فيها حضرته وشاهدته من الصّيد والقنص والجوارح فمن ذلك ما حضرته بشيزر في صدر العمر» (ص 139).

(1) نشير على سبيل الذكر لا الحصر إلى خبر إفرنجيّة تجرح مسلما.
أسامة بن منقذ، كتاب الاعتبار، ص 165.

(2) يُنظر على سبيل المثال خبر يسلم بعد قُطع شريان قلبه.
أسامة بن منقذ، كتاب الاعتبار، ص 45.

(3) نشير على سبيل المثال إلى خبر عجائب السلامة في آمد.
المصدر نفسه، ص ص 107-108.

(4) يقول محمّد الباري: للسيرة الذاتيّة خطابها السرديّ، وللنصّ السيرذاتيّ إنشائيّته الخاصّة.
محمّد الباردي، عندما تتكلّم الذات السيرة الذاتيّة في الأدب العربيّ الحديث، نشر مشترك، ط 1، تونس 2008، ص 162.

(5) سنحيل على المصدر طيّ المتن.

وكان يرافق ملك الأمراء أتابك زنكي وشهاب الدّين محمود بن تاج الملوك في دمشق، والملك نور الدّين أبي المظفّر محمود بن أتابك زنكي، وذكر العديد من البلدان التي كان يمارس فيها الصّيد مثل مصر وسوريّة، ولم يكن هذا الفصل بمعزل عن أخبار أخرى، ذكر فيها أنواع الجوارح وطباع والد أسامة وأصحابه.

ويتمثّل المستوى الثاني في تنظيم الأخبار داخل الباب الواحد؛ فأوجد بين كلّ مجموعة من الأخبار قطبا دلاليّا ينتظمها، كالقتال والرحلة وصيد الوحوش[1].

يبدو من خلال ما ورد في كتاب الاعتبار أنّ حياة أسامة بن منقذ قد اتّخذت ثلاثة مسارات كبرى: انصرف أسامة بن منقذ في المسار الأوّل إلى الحروب والقتال، وتوجّه في المسار الثاني إلى الصيد والقنص، وأمّا المسار الثالث فيتمثّل في السفر والترحال، ولم ينصرف إلى الكتابة إلّا في مرحلة متأخّرة من عمره. والسؤال لم كتب أسامة بن منقذ كتاب الاعتبار؟

إنّ تدوين الوقائع الماضيّة يتيح لأسامة بن منقذ أن يعيشها ثانيّة، ولكن بين التجربتين وجوه اختلاف عدّة، فقد عاش أسامة التجربة الأولى في الواقع المعيش عن طريق الممارسة، وكان محكوما بتسلسل الوقائع الزمنيّ وترابطها العلّي، وكان منشغلا بإثبات ذاته وفرض وجوده. وأمّا التجربة الثانية فقد عاشها في الذاكرة عن طريق الاستحضار والكتابة[2]، وأخضعها لعمليّة انتقاء، وكان منصرفا إلى فهمها والتأمّل فيها[3].

(1) يرى شكري المبخوت أنّ الحدث في السّيرة الذاتيّة وظيفيّا من حيث كونه مرتبطا بسلسلة من الأحداث اللاّحقة التي تنتج عنه.
شكري المبخوت، سيرة الغائب سيرة الآتي، دار الجنوب للنشر، تونس، 1992، ص 61.

(2) اصطلحت جليلة الطريطر على عملية الاستحضار أو حاضر السرد بمراجعة الماضي الفردي أو استراتيجيّات التبعيد. ورأت أنّ الخبرات المترسّبة والضاغطة بكلّ ثقلها على زمن الكتابة تمثّل تبعيدا ضروريّا لتكييف الرؤية السرديّة.
جليلة الطريطر، مقوّمات السيرة الذاتيّة في الأدب العربيّ الحديث (بحث في المرجعيّات)، ص 513.

(3) يقول جورج قوسدورف: إنّ الكتابة ليست نسخا للأفكار، وإنّما هي ميلاد لها.
Georges Gusdorf. Auto-Bio-Graphie Lignes de vie 2. Editions Odile Jacob. Paris. 1991. p. 94.

وقد أدّت عمليّة استحضار الوقائع الماضية وتدوينها إلى ثلاث نتائج: تتمثّل أولاها في إحضار التجارب السابقة في الواجهة الأماميّة من وعي أسامة بن منقذ، وتكثيفها. ويتيح له مفهوم الحضور (Notion de présence) أن يتمثّلها ذهنيّا، فيعمل فيها عقله، ويبحث عن المنطق المتحكّم فيها؛ فيسهل عليه اقتناص العبرة واستصفاء الحكمة من كلّ تجربة خاضها وحادثة عاشها وواقعة سمعها.

وتتمثّل النتيجة الثانية في الاحتماء من العجز؛ فقد بلغ أسامة بن منقذ من العمر عتيّا، واشتعل رأسه شيبا ووهن العظم منه[4]، وكان لهذا الانقلاب من القوّة إلى الضعف أثار سلبيّة وخيمة في نفسيّة ابن منقذ؛ ففرّ عن طريق الاستحضار من واقع يعيشه آنيّا إلى واقع عاشه قبليّا ليستمدّ منه العون في التخفيف من أزمته النفسيّة، وقد صوّر هذه الأزمة قائلا: «ولم أدري أنّ داء الكبر عامّ يعدي كلّ من أغفله الحمام، فلمّا توقّلت ذروة التسعين، وأبلاني مرّ الأيّام والسنين، صرت كجواد العلاف، لا الجواد المتلاف، ولصقت من الضعف بالأرض، ودخل من الكبر بعضي في بعضي، حتّى أنكرت نفسي، وتحسّرت على أمسي» (ص 207).

وأمّا النتيجة الثالثة فوثيقة الصلة بالنتيجة السابقة، وتتمثّل في إعطاء حياته معنى، فقد انعزل الكاتب عن الناس، وأقام في حصن كيفا من أعمال ديار بكر[5]، وأصبح عاجزا عن الفعل، فامتلأت نفسه فراغا لأنّ «الإطالة تجلب الملالة» (ص 242)، فارتدّ إلى ذاكرته يستحضر منها مسيرته في القتال والترفيه، ليسحبهما على واقعه الراهن، فتكتسب حياته معنى[6] جديدا

(4) يقول أسامة بن منقذ مستطردا: ضعفت القوّة ووهت، وتقضّت بُلْهَنية العيش وانتهت. ونكسني التعمير بين الأنام، وإلى الخمول يؤول الظلام.
أسامة بن منقذ، كتاب الاعتبار، ص 212.

(5) أسامة بن منقذ، كتاب الاعتبار، ص 213 (الهامش 97).

(6) يقول محمّد الباردي في سيرته الذاتيّة: «من أنا الآن؟... لست رجلا مهمّا إلى الدرجة التي يكتب فيها الناس المهمّون قصص حياتهم.. ولكنّي أريد أن أعطي لحياتي معنى».
محمّد الباردي، تقرير إلى عزيز أو سيرة مدينة سيرة ذاتيّة روائيّة، الكتاب الثاني، ضحى للنشر والتوزيع، 2012، قابس، 2012، ص 315.

بوجهيه الجادّ والهازل. ولئن مثّل مكوّن السرد في أخبار أسامة بن منقذ استراتيجيّة إحضار فما وظيفة مكوّن التعليق في مسار الاعتبار؟

2/ استراتيجيّة التبصّر

لقد عمد أسامة في مواطن عدّة من كتابه إلى تذييل الخبر بتعليق. وقد ضمّن تلك التعاليق مجموعة من الحقائق وصل إليها بعد أن عاش التجربة ذهنيّا. ويمكن تصنيف تلك الحقائق ثلاثة أصناف: يتمثّل الصنف الأوّل في الحقائق القيميّة، ويمكن استصفاء أبرزها من خلال الأمثلة التالية:

المثال الأوّل: «وكان ذلك اليوم من أشدّ الأيّام التي مرّت بي، لما جرى فيه من البغي القبيح الذي يُنكره الله تعالى وجميع الخلق» (ص 27).

المثال الثاني: «وكلّ أمر لا يحضره العقل يظهر فيه الخطأ والزلل» (ص 110).

المثال الثالث: «فهذا حضره العقل في موضع تزول فيه العقول، وأولئك ما حضرهم العقل؛ فالإنسان أحوج إلى العقل من كلّ ما سواه، وهو محمود عند العاقل والجاهل» (ص 112).

المثال الرابع: «فهذه آثار الجهل وعواقبه» (ص 111).

إنّ مدار هذه الحقائق على الظلم والعلم والجهل. وقد وصل الكاتب بعد إعمال عقله في ما نقله من وقائع[1] إلى أنّ الظلم مرتعه وخيم، وهو ممّا أنكره الله والخلق أجمعين، ووصل كذلك إلى أنّ تحكيم العقل يعصم الإنسان من الوقوع في الخطأ، وأمّا الجهل فمهلك أصحابه.

ويتّصل الصنف الثاني من الحقائق بالحقائق الوجوديّة، تحديدا الموت؛ فالوعي بتأخّر الموت[2] رغم حضور أسبابه حمل الكاتب على البحث في حقيقة الموت، ونهاية رحلة الإنسان في الوجود، وقد تواترت التعليقات المؤكّدة لهذه الحقيقة، ونقتصر على إيراد نماذج منها:

المثال الأوّل: «فهذه نكبات تزعزع الجبال وتفني الأموال، والله سبحانه يعوّض برحمته ويختم بلطفه ومغفرته، وتلك وقعات كبار شاهدتها مضافة إلى نكبات سلمت فيها النفس لتوقيت الآجال» (ص 45).

المثال الثاني: «فسبحان من إذا قدّر السلامة أنقذ الإنسان من لهاة الأسد، فذلك حقّ لا مثل» (ص 108).

المثال الثالث: «فأيسر الأشياء يقتل إذا فرغ الأجل، والفأل موكل بالمنطق» (ص 135).

المثال الرابع: «فتعالى الله القادر على ما يشاء لا يؤخّر الأجل الإحجام، ولا يقدّمه الإقدام (ص 90).

لحقيقة الموت في هذه الشواهد وجهان: يتمثّل أوّلهما في انفصال الموت عن أسبابه وعلله؛ فقد ذكر الكاتب أنّه واجه مخاطر جمّة في ما مضى من عمره، وعزّزها بذكر بمخاطر السباع، وتعدّ كلّ تلك المخاطر من لوازم الموت وأسبابه المباشرة، ولكنّ الموت يمرّ قرب الكاتب وغيره ممّن يواجهها ولا يصيبهم.

وأمّا الوجه الثاني من حقيقة الموت فيتّمثل في اتصال الموت بالأجل؛ فالموت لن يصيب أيّ كائن حيّ مهما أحاطت به الأسباب والعلل، ولكنّه يصيب كلّ كائن متى انقضى الأجل، فالموت قدر يحلّ بالإنسان بحلول الأجل. ووصل الكاتب بعد إدراك حقيقة الموت إلى عبرة مفادها أنّ الجبن والتقاعس والتوقّي من الموت لن

(1) يقول جيروم برنر: في السيرة الذاتيّة نطرح رؤية لما نسميه ذاتنا وأفعالها، وتأمّلاتها وأفكارها ومكانها في العالم.
جيروم برنر، صناعة الذات وصناعة العالم، ضمن السرد والهويّة دراسات في السيرة الذاتيّة والذات الثقافيّة، ترجمة عبد المقصود عبد الكريم، المركز القومي للترجمة، ط 1، القاهرة، 2015، ص 47.

(2) يقول أسامة بن مستطردا (الطويل):
تناستنيَ الآجال حتّى كأنّني دريئة سفر بالفلاة حسير
أسامة بن منقذ، كتاب الاعتبار، ص 212.

تُنجي من الموت، وأنّ الشجاعة والإقدام وركوب المخاطر لن تعجّل بالموت. وقد أجمل هذه العبرة في قوله: «فلا يظنّ ظانّ أنّ الموت يقدّمه ركوب الخطر ولا يؤخّره شدّة الحذر؛ ففي بقائيّ أوضح معتبر. فكم لقيت من الأهوال وتقحّمت المخاوف والأخطار ولاقيت الفرسان وقتلت الأسود وضربت بالسيوف وطعنت بالرماح، وجُرحت بالسهام والجروح –وأنا من الأجل في حصن حصين– إلى أن بلغت تمام التسعين». (ص 211).

وأمّا الصنف الثالث من الحقائق فحقائق دينيّة، ومدارها على القضاء والقدر. ونسوق الأمثلة التالية لبيان هذه الحقيقة:

المثال الأوّل: «فعجبا من ذلك الجبّار الذي قتل الأسد وقتلته عقرب مثل الإصبع؛ فسبحان الله القادر النافذ المشيئة في الخلق» (ص 140).

المثال الثاني: قلت سبحان الله من نفذت مشيئته في خلقه يُحيي ويميت وهو حيّ لا يموت بيده الخير وهو على كلّ شيء قدير (ص 54).

المثال الثالث: فسبيل الرجل المحارب يتفقّد عدّة حصانه، فإنّ أيسر الأشياء وأقلّها يؤذي ويهلك، كلّ ذلك مقرون بما يجري (كذا) به الأقدار والأقضية (ص 185).

يتجلّى قضاء الله وقدره من خلال هذه الأمثلة في الموت؛ فالله يهيّئ الأسباب ليتحقّق بها قضاؤه وقدره، وقد عجز عقل الكاتب عن استيعاب المفارقة بين الرجل يقتل الأسد، ولكن تقتله العقرب، رغم ما بين الأسد والعقرب من تفاوت في البنية الجسميّة، ووصل إلى أنّ القضاء والقدر هما التفسير المنطقيّ لهذه المفارقة، وقد حمله بصره بهذه الحقيقة على الاعتبار والتسليم بالمشيئة الالهيّة.

وهكذا اعتبر المؤلّف ممّا مضى في حياته، وقد حقّق عمل الاعتبار عن طريق استراتيجيّة الإحضار التي تمثّلت في السرد، واستراتيجيّة التبصّر التي تمثّلت في التعليق[1]، ولا شكّ في أنّ القارئ سيعتبر ممّا اعتبر منه المؤلّف. فما الاستراتيجيّات التي وظّفها المؤلّف لحمل القارئ على الاعتبار؟

III الاعتبار غير المباشر

إنّ القارئ وهو يقرأ «كتاب الاعتبار» لا يعدم موعظة أو عبرة، بل إنّ أسامة بن منقذ توجّه إلى القارئ في بعض المواضع حاملا إيّاه على موقف دون آخر وداعيا إيّاه إلى الاعتبار؛ فهو يقول: «فلا يظنّ ظانّ أنّ الموت يقدّمه ركوب الخطر ولا يؤخّره شدّة الحذر، ففي بقائيّ أوضح معتبر» (ص 211)، وألحّ أسامة بن منقذ على دعوة القارئ إلى الاعتبار قائلا: «فإنّني رأيت... معتبرا يوضّح للشجاع العاقل والجبان الجاهل أنّ العمر مؤقّت مقدّر لا يتقدّم أجله ولا يتأخّر» (ص 211).. ويقول فيليب حتي: «رمى المؤلّف من وراء كتابه إلى تعليم أمثولة أدبيّة، لذلك سمّاه كتاب الاعتبار، وأورد موادّ يُرجى منها أن يعتبر القارئ بما حلّ بغيره يستفيد لنفسه»[2].

وإذا نظرنا إلى الأخبار الواردة في كتاب أسامة بن منقذ «كتاب الاعتبار» من زاوية القارئ وقفنا على ضروب أخرى مختلفة من الاعتبار، ومثّل كلّ مكوّن من مكوّنات الخبر استراتيجيّة جديدة تنهض بمقصد الاعتبار، فما تلك الاستراتيجيّات؟

1 / استراتيجيّة التمثيل

لقد صدّر الكاتب عدّة أخبار بمكوّن تمهيديّ، وتضمّن كلّ مكوّن حكما من الأحكام المطلقة، ثمّ أورد قسم السرد

(1) تقول جليلة الطريطر: «أقصى ما يمكن أن يطمع فيه من تعقّل حياته (أسامة بن منقذ) هو الاعتراف والتسليم بعجزه عن إدراك وجوه الحكمة المصرّفة لأطوار حياته والتنبّؤ بما يمكن أن تنطوي عليه كلّ لحظة تمرّ به من خير أو شرّ، من سعادة أو ألم.
جليلة الطريطر، الاعتبار لأسامة بن منقذ نموذجا في الكتابة السيرذاتيّة العربيّة القديمة، ص 284.

(2) فيليب حتي، مقدّمة المحرّر، ضمن كتاب الاعتبار، ص «ك».

ليستدلّ على صواب ذلك الحكم. وقد تنوّعت تلك الأحكام واختلفت مضامينها، ونذكر منها النماذج التالية:

المثال الأوّل: «ومن عجائب القلوب أنّ الإنسان يخوض الغمرات ويركب الأخطار ولا يرتاع من ذلك، ويخاف ما لا يخاف منه الصبيان ولا النسوان» (ص 182).

المثال الثاني: «النصر في الحرب من الله تبارك وتعالى لا بترتيب وتدبير ولا بكثرة نفير ولا نصير» (ص 190).

المثال الثالث: «ومن الناس من يقاتل للوفاء» (ص 123).

المثال الرابع: «إذا انقضت المدّة لم تنفع الشجاعة ولا الشدّة» (ص 117).

المثال الخامس: «وفي حسن السياسة ربح كثير من عمارة البلاد» (ص 114).

تضمّن المثال الأوّل حكما مفاده المفارقة بين الشجاعة والخوف عند الإنسان؛ فهو يشجع في مواجهة عظائم الأمور والأشياء، ويجبن في مواجهة الصغائر، وقد قدّر الكاتب أنّ القارئ قد يعسر عليه استيعاب هذا الحكم؛ فجاء بالمكوّن السرديّ، ونقل خبر عمّه وأحد الغلمان، فالعمّ «من أشجع أهله، له المواقف المشهورة والطعنات المذكورة، وهو إذا رأى الفأرة تغيّرت صورة وجهه ولحقه كالزمع من نظرها وقام من الموضع الذي يراها فيه» (ص 182)، وأمّا الغلام فكان شجاعا مقداما، ولكنّه يفزع من الحيّة حتّى يفقد صوابه.

وقام المثال الثاني على حكم مطلق مفاده أنّ النصر في الحرب لا يكون بالتخطيط المحكم أو العدّة والعتاد وإنّما هو بمشيئة الله، ثمّ ساق خبر انتصار أبيه وعمّه وبعض المماليك على جيش الإفرنج في شيزر.

وتضمّن المثال الثالث حكما مفاده القتال من أجل الوفاء، وهو ليس حكما مطلقا يمكن اعتباره قيمة كونيّة وإنّما هو حكم جزئيّ يخصّ صنفا معيّنا من الناس، ثمّ أورد الكاتب خبر الكردي الذي قاتل قتالا شديدا مع عمّ الكاتب وأبيه إقرارا منه بجميل لهما عليه.

وأمّا المثال الرابع فمداره على الأجل، وهو حكم مطلق يستمدّ قوّته من استناده إلى الحقائق التي جاء بها الإسلام، وقد نقل المؤلّف خبر موت أحد أصحابه في ساحة القتال رغم شجاعته وصغر سنّه، وتضمّن المثال الخامس حكما مفاده ازدهار العمران متى أحسن الحاكم سياسة الناس، واستدلّ الكاتب على هذا الحكم بما كان من حسن تدبير حسام الدولة بن دلماج صاحب بدليس في حماية قلعته من التخريب.

إنّ هذه الأحكام الواردة في صدارة بعض الأخبار تتّسم بسمتين: تتمثّل أولاهما في نزوعها إلى التجريد، وقد جاء القسم السرديّ إثرها مباشرة بمنزلة التمثيل الحكائيّ ليخفّف ما بها من تجريد، ويسهل على القارئ استيعابها، وتتّصل السمة الثانية بنزوع هذه الأحكام إلى الإطلاق؛ فهي بمنزلة المبادئ الكبرى التي يمكن أن يسلّم كلّ إنسان بها[1]، ويمثّل التسليم بها وجها من وجوه الاعتبار الذي أفاده القارئ من التجارب التي عاشها الكاتب[2]، وإذا شكّل قسم السرد استراتيجيّة تمثيل تيسّر على القارئ الاعتبار من سيرة أسامة بن منقذ فما الاستراتيجيّة التي مثّلها قسم التعليق؟

(1) يرى محمّد مشبال أنّ أخبار الجاحظ حكايات سرديّة تقوم بتمثيل مضمون خلقيّ أو حكمة مشتركة أو معنى عقديّ أو فكرة فلسفيّة أو علميّة، فإذا كانت في بنيتها السّطحيّة الظّاهرة تسرد حكاية فإنّها من الواضح تخدم أغراضا بلاغيّة.
محمّد مشبال، البلاغة والسرد، جدل التصوير والحجاج في أخبار الجاحظ، منشورات كلّيّة الآداب، جامعة عبد الملك السعدي، تطوان، 2010، ص 49.

(2) يقول سعيد جبار متحدّثا عن كتاب الاعتبار: «وإذا كانت هذه المادة السرديّة التاريخيّة التي يقدّمها المؤلّف تأتي لتقديم عبرة وموعظة للقارئ المتلقّي فسيصبح مقصدها التواصليّ تعليميّا توجيهيّا، تعمل على التأثير فيه من أجل حفزه على الاعتقاد في مجموعة من المبادئ وتمثّلها في حياته وسلوكاته».
سعيد جبار، من السرديّة إلى التخييليّة بحث في بعض الأنساق الدلاليّة في السرد العربيّ، دار الأمان، ط 1، الرباط، 2013، ص 99.

2/ استراتيجيّة التوجيه

عمد الكاتب في عدّة مواطن من كتابه إلى ختم الخبر بتعليق، وكنّا رأينا في العنصر السابق من عملنا أنّ التعليق مثّل استراتيجيّة تبصّر بالنسبة إلى الكاتب، ولكنّ هذا المكوّن ينهض بضرب مختلف من الاستراتيجيّات متى نظرنا إليه من زاوية القارئ، ونوضّح ذلك اعتمادا على النماذج التالية:

المثال الأوّل: «والرجال إذا قوّوا نفوسهم على شيء فعلوه» (ص 102).

المثال الثاني: «فسبحان القائل «وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم» (ص 77).

المثال الثالث: «قلت فسبحان من نفذت مشيئته في خلقه يحيي ويميت، وهو حيّ لا يموت، بيده الخير وهو على كلّ شيء قدير» (ص 45).

المثال الرابع: «»وكلّ أمر لا يحضره العقل يظهر فيه الخطأ والزلل» (ص 110).

تضمّن المثال الأوّل نتيجة مفادها أنّ الشجاعة والعزيمة والإصرار تؤدّي وجوبا إلى الإنجاز، وقد وصل إليها الكاتب بعد أن نقل خبر ابن المرجّى الذي استولى بمفرده على حصن، وتضمّن المثال الثاني نتيجة مدارها على وجوب تسليم الإنسان بقضاء الله وقدره لأنّه يجهل مواضع الخير والمنفعة، وتفيد النتيجة الواردة في المثال الثالث أنّ كلّ شيء محكوم بمشيئة الله، لا سيّما الحياة والموت. وأمّا النتيجة الواردة في المثال الأخير فمفادها وجوب إعمال العقل في كلّ الأمور للتوقّي من الوقوع في الخطإ.

وتتحقّق استراتيجيّة التوجيه كذلك من خلال تلك الأحكام التي كان الكاتب يقوّم بها بعض الأخبار من حين إلى آخر، فهو يقول: «وكان من طريف ما جرى ذلك اليوم» (ص 27). ويقول كذلك: «ومن عجائب السلامة إذا جرى بها القدر وسبقت بها المشيئة» (ص 107)، ويقول في موضع آخر: «وشاهدت من نخوات النساء عجبا» (ص 163)، بل يعمد الكاتب في بعض الأحيان إلى الحكم على مجموعة من الأخبار مثل قوله في بداية الحديث عن المعارك مع الإفرنج والمسلمين: «وسأورد من عجائب ما شاهدته ومارسته في الحروب ما يحضرني ذكره» (ص 46).

إنّ هذه النتائج الواردة في قسم التعليق في آخر الأخبار أو الأحكام التي تقوّم الأخبار تمثّل ضربا من الحقائق التي استخلصها الكاتب من التجارب التي عاشها في ما تقدّم من عمره، ولمّا كانت هذه الحقائق نتائج مباشرة للتجارب التي مرّ بها الكاتب فإنّها ستحوز قدرا كبيرا من الصدق، وستضغط على ذهن القارئ، فتوجّهه إلى التسليم بها والعمل بمقتضاها من جهة كونها حقائق مطلقة وغير قابلة للتشكيك في جدواها، وإذا كانت أقسام الخبر قد مثّلت استراتيجيّات مختلفة ساهمت في تحقيق مقصد الاعتبار، فما الاستراتيجيّة التي مثّلها الكتاب بكلّ أبوابه.

3/ استراتيجيّة المحاكاة

لقد نقل أسامة بن منقذ في كتابه ما أسعفته الذاكرة باستحضاره من التجارب التي عاشها والوقائع التي حضرها سواء أكان فاعلا فيها أم شاهدا عليها، ونقل كذلك مواقفه وردود أفعاله في السياقات التي وجد نفسه فيها، فبنا صورة لذاته قوامها الشجاعة والبطولة والحكمة والمروءة.

والقارئ وهو يقرأ سيرة أسامة بن منقذ يتيسّر عليه الوصول إلى تلك الصورة التي بناها الكاتب لنفسه،

فيتأثّر بها أيّما تأثر، ويقوده تأثّره ذلك إلى المحاكاة، فيعمل على اتّباع الكاتب في بعض المواقف متى وجد نفسه في سياق يشبه السياق الذي نقله الكاتب، ويقلّده في بعض الألوان من السلوك في مختلف وجوه الحياة.

إنّ هذه المحاكاة تمثّل استراتيجيّة من استراتيجيّات الاعتبار؛ فيجد القارئ نفسه قد اعتبر من شخصيّة أسامة بن منقذ في حروبه وأسفاره وصيده ولهوه، وغيّر موقفه من عديد القضايا بناء على ما أفاده من سيرة أسامة بن منقذ.

لقد نهض مقصد الاعتبار غير المباشر على ثلاث استراتيجيّات: التمثيل والتوجيه والمحاكاة، وهي كفيلة بأن توصل القارئ إلى مختلف ضروب الاعتبار التي أوردها المؤلّف في كتابه؛ فيفيد منها ما من شأنه أن يغيّر مواقفه أو يعدّل سلوكه ويوجّه حياته وجهة مّا.

الخاتمة

يتّضح ممّا تقدّم أنّ «كتاب الاعتبار» لأسامة بن منقذ دليل قاطع على حضور أدب الذات في أدبنا العربيّ القديم، ولئن لم يستجب هذا الكتاب كلّيًا لمعايير التجنيس الحديثة فإنّه يعدّ أقرب إلى جنس السيرة الذاتيّة من الأجناس الأخرى لا سيّما المذكّرات.

وقد قام الكتاب على ضربيْن متداخليْن من الاعتبار: اعتبار موجّه إلى الكاتب نفسه بعد أن أرهقه تأخر الأجل، وتأسّس على استراتيجيّتيْ الإحضار والتبصّر؛ فكثّف الكاتب عن طريق الإحضار الماضي في ذهنه. ووصل عن طريق تبصّر ما مرّ به من التجارب إلى استصفاء الموعظة واستخلاص العبرة.

وأمّا الضرب الثاني من الاعتبار فموجّه إلى القارئ، وقد نهضت به ثلاث استراتيجيّات مختلفة باختلاف المكوّنات البنيويّة في الأخبار المرويّة: التمثيل والتوجيه والمحاكاة. ومكّنت هذه الاستراتيجيّات القارئ من النفاذ إلى مقاصد الكاتب، والوقوف على ما أراد له من وجوه الاعتبار.

المصدر والمراجع

I المصدر:

بن منقذ (أسامة)، كتاب الاعتبار، حرره فيليب حتي، الدار المتّحدة للنشر، بيروت، 1981.

II المراجع:

1/ المراجع العربيّة

- الاعتبار لأسامة بن منقذ نموذجا في الكتابة السيرذاتيّة العربيّة القديمة، حوليّات الجامعة التونسيّة، ع 37، 1995.
- الباردي (محمّد)، عندما تتكلّم الذات السيرة الذاتيّة في الأدب العربيّ الحديث، نشر مشترك، ط 1، تونس 2008.
- برنر (جيروم)، صناعة الذات وصناعة العالم، ضمن السرد والهويّة دراسات في السيرة الذاتيّة والذات الثقافيّة، ترجمة عبد المقصود عبد الكريم، المركز القومي للترجمة، ط 1، القاهرة، 2015.
- تقرير إلى عزيز أو سيرة مدينة سيرة ذاتيّة روائيّة، الكتاب الثاني، ضحى للنشر والتوزيع، 2012، قابس، 2012.
- جبار (سعيد)، من السرديّة إلى التخييليّة بحث في بعض الأنساق الدلاليّة في السرد العربيّ، دار الأمان، ط 1، الرباط، 2013.

● شطاح (عبد الله)، تسريد الذات بين الرواية والسيرة الروائيّة.. المراجع والمتخيّل، عالم الفكر، العدد 171، مارس 2017.

● القاضي (محمّد)، الظاهر والباطن في كتاب «الأيّام» بحث في التبئير، ضمن مائويّة طه حسين وقائع ندوة بيت الحكمة بقرطاج 27 و28 جانفي 1990، المجمع التونسيّ للعلوم والآداب والفنون بيت الحكمة، تونس، 1993.

● المبخوت (شكري)، سيرة الغائب سيرة الآتي، دار الجنوب للنشر، تونس، 1992.

● مجموعة مؤلّفين، معجم السرديّات، إشراف محمّد القاضي، نشر مشترك، ط 1، 2010.

● مشبال (محمّد)، البلاغة والسرد، جدل التصوير والحجاج في أخبار الجاحظ، منشورات كلّيّة الآداب، جامعة عبد الملك السعدي، تطوان، 2010.

● مقوّمات السيرة الذاتيّة في الأدب العربيّ الحديث (بحث في المرجعيّات)، مركز النشر الجامعيّ ومؤسّسة سعيدان للنشر، تونس، 2004.

2/ المراجع الأجنبيّة:

* Gusdorf (Georges), Auto-Bio-Graphie Lignes de vie 2, Editions Odile Jacob, Paris. 1991.

* L'autobiographique hors l'autobiographie, Elseneur No 22, Presses Universitaires de Can, 2008.

* May (Georges), L'autobiographie, PUF, 2ème édition, Paris, 1984.

* Lejeune (Philippe),

- L'autobiographie en France, Armand Collin, Paris, 1971.

- Le pacte autobiographique, Coll. Poétique, Seuil, Paris, 1975.

* Sammoud (Hammadi), Prose arabe , in Encyclopédia Universalis, T 2, 1985.